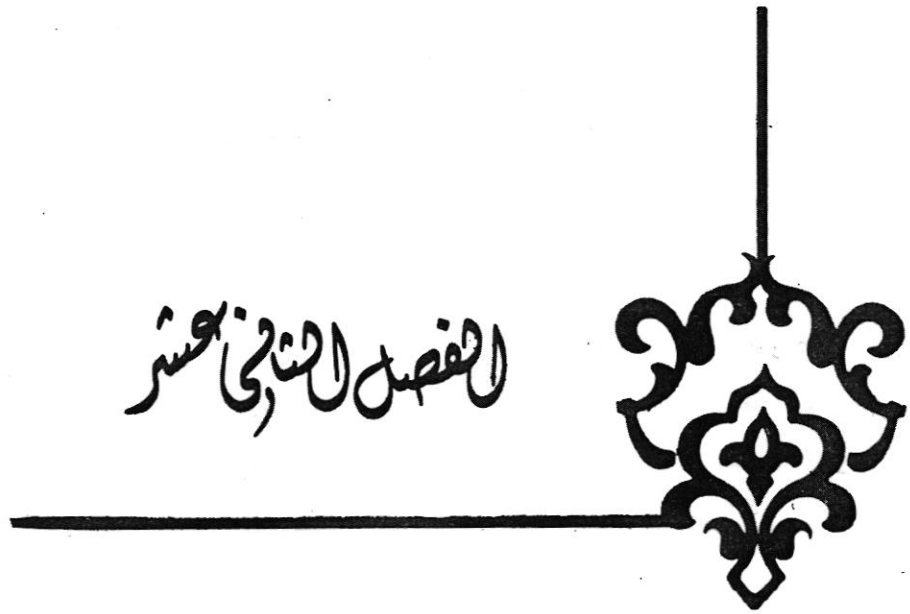

المرزوقي وعمود الشعر

للفظة (عمود في المعجمات معان كثيرة ، ابرزها مايقوم عليه البيت وغيره . وترد اللفظة ايضاً مضافة فيقال (عمود البطن) بمعنى الظهر ، (وعمود الميزان) بمعنى القضيب المعدني الذي تعلق بطرفيه كفتا الميزان ، وعمود الصبح ، اي ضوؤه

وقد ورد مصطلح (عمود الشعر) في كتاب (الموازنة للامدى (ت ٣٧٠) ثلاث مرات(١) ... ومع انه لم يقدم لنا تعريفاً محدداً لهذا المصطلح النقدي المهم ، الا اننا نستطيع ان نستنتج من موازنة بين البحتري وابي تمام انه يريد به خصائص القصيدة العربية كما عرفه شعر البحتري وشعراء العربية السابقين ولم يختلف فهم القاضي الجرجاني (ت ٣٩١ هـ) كثيراً عن فهم الامدي له .

وقد استقرت دلالته تماماً وعلى نحو مفصل عند المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) في القرن الخامس (فكانت صياغته لعمود الشعر هي خلاصة الاراء النقدية في القرن الرابع على نحو لم يسبق اليه ولا تجاوز احد من بعده . فلو لم يكن عمود الشعر هو

---

(١) ١/ ٦ ، ١٢ ، ١٨

الصيغة التي اختارها شعراء العربية لكان على اقل تقدير هو الصورة التي اتفق عليها النقاد)(٢) .

وقد يبدو ان المصطلح كان موجوداً قبل عصر الامدي بدليل انه جاء على لسان البحتري في قوله (كان ابو تمام اغوص على المعاني مني ، وانا اقوم بعمود الشعر منه)(٣) .

ومعلوم ان البحتري توفي عام (٢٨٤ هـ) اي قبل الامدي بنحو قرن من الزمن ، غير انه لم يكن شائعاً في اوساط الشعراء او النقاد . لاننا لانجده فيما بين ايدينا من مصادر اخرى على نحو مانجد غيره من المصطلحات النقدية الاخرى .. ومع اننا لانستطيع ان نقطع بأن المصطلح اساساً من ابتكار البحتري نفسه ... الا اننا قد نستطيع القول ان (عمود الشعر) نشأ مع بدء الصراع بين الشعر القديم ممثلاً في البحتري والشعر الجديد ممثلاً بأبي تمام وارتبط وجوده بأسم هذين الشاعرين ولذلك قيل عن البحتري انه التزم بالعمود وان ابا تمام خرج عنه .. ولم نسمع او نقرأ ان شاعراً اخر غير هذين وصف بهذه الصفة او تلك .

الامدي وعمود الشعر :

ولقد بلور الامدي ملامح الصراع بين القديم والجديد بالموازنة التي عقدها بين هذين الشاعرين وحيث انه عد البحتري متمسكاً بالعمود .. فقد لانكون مغالين اذا قلنا ان ملامح شعر البحتري تمثل خصائص عمود الشعر .. .. وان كل ماكان خلاف تلك الخصائص يعد خارجاً عنه .. وهو مايلاحظ على شعر ابي تمام ، ومع ان الامدي اميل الى البحتري فأنه في موازنته كان يعكس ويصور ماكان سائداً في عصره وقبله بشأن هذين الشاعرين اللذين يمثلان تيارين متميزين في الشعر العربي .. آية ذلك ان لهذين التيارين انصاراً ومؤيدين بحيث ان المفاضلة بين الشاعرين لم تستقر على ايهم الافضل فهما اذن يمثلان ذوقين سائدين فمن كان ذوقه قائماً على حلاوة اللفظ وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه وقرب المأتي وانكشاف المعاني فضل البحتري وهؤلاء هم (المطبوعون) و (الاعراب) و (اهل البلاغة والكتاب) ومن كان ذوقه قائماً على الغموض والغوص عن المعاني وفلسفي الكلام . فضل ابا تمام وهؤلاء هم (اهل المعاني) و (اصحاب الصنعة)(٤) .

---

(٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب . ٤٠٥

(٣) الموازنة ١ / ١٢

(٤) الموازنة ١ / ٦

لقد كان لابد من اجل تقويم شعر ابي تمام ، والشعر الجديد ان يحال هذا الشعر الى مرجع يفترض فيه ان يكون النموذج الذي يقاس عليه اي شعر فأما ان يكون متطابقاً معه او خارجاً عليه ، ولذلك فقد اقام الامدي موازنته بين الطائيين على اساس الالتزام بعمود الشعر وحدد ملامح هذا العمود على نحو واضح ودقيق ، ، واعيدت صياغة هذه الافكار لاحقاً عند المرزوقي فيما اصبح يعرف بأركان عمود الشعر، غير ان الامدي لميله المعروف الى البحتري والشعر القديم لم يتساءل عن مشروعية خصائص شعر العمود الذي يفترض ان تلتزم به القصيدة الجيدة مع ان اخضاع الشعر الجديد ـ المتمثل بمدرسة البديع ـ للنقد في ضوء نظرية عمود الشعر تجاوز على المرحلة التاريخية التي نشأ فيها هذا الشعر والواقع ان الموازنة بين الشعر القديم والشعر الجديد كانت قد بدأت بأبن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) غير ان موازنته اقتصرت على التدليل على ان ماادعاه الشعر الجديد وهو البديع ليس جديداً ولاهو من ابداعه .. فقد وجد في الشعر القديم وكلام العرب وقد قادته موازنته الى ان مذهب الاوائل هو الاقتصاد في البديع ، اما المحدثون فقد افرطوا(٥) . اما عند الامدي فقد اتسعت دائرة الموازنة فشملت بالاضافة الى البديع للصياغة واللفظ والمعنى . فمن ملامح الاتجاه الاول الالمام بالمعاني وصحة العبارة وقرب المأتي .. ومن ملامح الاتجاه الثاني الغوص عن المعاني والتدقيق فيها والاسراف في البديع ـ الطباق والجناس والاستعارة ـ(٦) .

ويمكن التأمل في هذين الاتجاهين اختزالهما الى مبدأ واحد . هو الوضوح الذي يمثله عمود الشعر والغموض الذي يمثله البديع .. وقد عد ابو تمام خارجاً عن عمود الشعر لانه عدل عن الوضوح الى الغموض .

وفي هذا خروج عن مذاهب العرب وليست الاستعارات البعيدة واستكراه الالفاظ والاصالة غير اوجه متعددة لظاهرة واحدة .

ومثلما كان عمود الشعر عند الامدى معياراً لفرز الشعر الواضح من الغامض او شعر الاوائل وشعر المحدثين . كان العمود عند المرزوقي معياراً (لتمييز تليد الصنعة من الطريف) و (قديم نظام القريض من الحديث) و (ليعلم فرق مابين المصنوع والمطبوع) (وفضيلة الاتي السمح على الابي الصعب)(٧) .

(٥) البديع ١

(٦) الموازنة ١/ ٦

(٧) مقدمة شرح الحماسة ١/ ٨ ـ ٩

ويلاحظ على نص المرزوقي انه جعل (عمود الشعر) الاصل الذي يقاس عليه الجديد .. وانه قرن (الاتي السمح) بالطبع (والابي الصعب) بالصنعة بمعنى آخر اختزل الخلاف بين التيارين الشعريين في مبدأ واحد (الغموض) و (الوضوح) او (المصنوع) و (المطبوع) .

الجرجاني وعمود الشعر :

وعلى طريق الامدي سار القاضي الجرجاني فقرن الشعر المطبوع بالبحتري(٨) وحدد في فقرة مهمة له معايير العرب في المفاضلة بين الشعراء .. فقال (وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وسدّدَ فاغزر ولمن كثرت سوائر امثاله وشوارد ابياته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض)(٩) .

وفي هذا النص حدد ـ على نحو واضح لالبس فيه ـ اركان عمود الشعر بالاتي : ـ

١ . شرف المعنى وصحته
٢ . جزالة اللفظ واستقامته
٣ . الاصابة في الوصف
٤ . المقاربة في التشبيه

وقد نفى القاضي الجرجاني ان يكون البديع ـ الطباق والجناس والاستعارة من خصائص عمود الشعر .. الامر الذي يدعونا الى تصور ان يكون وجود هذا هو الفاصل بين القديم والحديث . لذلك يقول د . احسان عباس ان البديع هو الفارق بين مايسمى عمود الشعر وما هو خارج عنه .. اما عند الامدي فقد كان الفرق بينها اكبر من ذلك بكثير(١٠) .

---

(٨) الوساطة ٢٥
(٩) السابق ٣٣ ـ ٣٤
(١٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٣٣٣